

السبب

الثالث

عشر

د. صالح احمد العلي

تعتبر نظرية نقاوة العرق اليوم من النظريات البالية بعد ان اثبتت الدراسات العلمية الدقيقة والمتعددة علم صحتها ، ولم يبق ممن يؤمن بها الا عند ضئيل من المتطرفين ذوي المصالح علما بانهم لا يلقون في اعتقادهم تأييدا ولا يحضون بأي تقدير .

غير ان اسرائيل بالرغم من رفض العلم لهذه النظرية فانها تعتبرها عقيدة اساسية ، وتعتبر قيام دولتها قائما على اساس هذه الفكرة . وقد اثار موقفها اشمزاز العالم واستهجانهم ، فاصطدت هيئة الامم المتحدة ، وهي اعلى مؤسسة عالمية قرارها بان اسرائيل دولة عنصرية ، وان هذا مثير استهجان العالم .

ان هذا القرار الخطير صادر من اعلى هيئة دولية ومستند على اساس علمية ومنعت من الاخطار التي تنجم في العالم من تبني هذا المبدأ . غير انه بالرغم من ذلك فان اسرائيل للذين للقرار ، وظلت متمسكة بمقيدتها العنصرية دون حياء او خجل . وقد تنافست اسرائيل ان هذه العقيدة مناقضة لكل الدراسات الفلسفية .

وقد ظهرت حديثا دراسات تثبت ان اليهود ليسوا عنصرا نقي العن ، ولكنهم خليط من دماء متعددة . ومن أبرز هذه الدراسات كتاب صدر في الصيف الماضي ، مؤلفه الكاتب البريطاني اليهودي المشهور اذتر كستلر ، بين فيه ان اكبر مجموعة من اليهود هي التي تسكن في روسيا واوروبا الشرقية ومن هاجر منهم الى الولايات المتحدة ، وان هؤلاء اليهود اصلهم من الخزر الذين كانوا يقيمون في العصور الوسطى في جنوب روسيا . وليست لهم علاقة عرقية بالاسرائيليين الذين كونوا دولة في فلسطين . لذلك فان القول بان اليهود خالصوا الدم وانهم يتكونون من اثني عشرة قبيلة (سبطا) هو قول غير صحيح ، لان اغلبية يهود العصر الحاضر هم من الخزر في الاصل ، وقد اورد ادلة تاريخية وحضارية والتربولوجية كثيرة لتوضيح ودعم رايه ؛ وبذلك يكون يهود هؤلاء الخزر القبيلة الثالثة عشر والاخر اذا كان اليهود اثنا عشر قبيلة كما يدعون ؟ ومن هنا حصل عنوان كتابه The Thirteen Tribe

ومؤلف الكتاب اذتر كستلر يهودي من واسط اوريا ، قابوه مجري ، وامه نمساوية ، وقد اعتنق المعتقدات البيسارية وحارب مع الشيوعيين في اسبانيا ، ثم لجأ الى فرنسا حيث سجن بعد الاحتلال الألماني للفرنسا ، ثم فر من السجن ولجأ الى انكلترا ، وشارك المنشقين على روسيا ونفوذها على الاحزاب الشيوعية . ونشر عددا كبيرا من الكتب الادبية والسياسية ؛ وتتميز كتبه بوضوح الفكرة وسلاسة الاسلوب .

والكتاب الذي تلخصه اليوم صدر في انكلترا قبل بضعة اشهر ، تلقى اقبالا عظيما عند الناس ، ولكنه اثار استحياءا شديدا عند اليهود ، فشتوا عليه حملة عنيفة ، ونشروا البحوث والمقالات في التهجيم عليه ، وبالنظر لاهمية الكتاب قائما تقدم تلخيصنا وانما له ، محاولين المحافظة على روح الكتاب ولب محتواه ، ولا ريب في ان الكتاب عن اليهود ، وقد عرض بعض الآراء التي يمكن اعتبارها مبالغ في دورهم ، كما انه قسم تفاصيل كثيرة عن دولة اليهود في الخزر ، وقد اثرنا ان يكون لها نفس التفصيل في ملخصنا لقلصة المعلومات عنها ، ولما لقتها بتاريخ العرب والمسلمين في العصور الوسطى ، هذا فضلا عن ان معرفة العدو على حقيقته يساعد على وضع خطط النضج للعرب في كفاحهم الاساس ضد اسرائيل .



دولة الخزر

كانت تسيطر في
اواخر القرن الثامن
الميلادي على الممالك
المتحضر دول كبيرة يحكم كل منها
ملك عظيم؛ فالدولة الإسلامية التي
تمتد بلادها من اواسط اسيا حتى
المحيط الاطلسي كان على رأسها
ال خليفة هارون الرشيد ، وبالقرب
منها كانت الدولة البيزنطية التي
تحكم اقاليم ممتدة من اواسط اسيا
الصغرى حتى ايطاليا وعلى عرشها
الامبراطورة ايرين، اما اوروبا فكانت
يحكمها شارلمان الذي توج نفسه على
الامبراطورية الرومانية الجديدة التي
شملت فرنسا والمانيا وشمال ايطاليا.
ولي ذلك الوقت ايضا كانت المنطقة
الواقعة بين القوقاز والفولجا في
شرق اوروبا تحكمها دولة يهودية
تعرف بالامبراطورية الخزر . وقد
قامت هذه الدولة ابان اوج قوتها بين
القرن السابع والقرن العاشر الميلادي،
بدور مهم في تشكيل مصائر اوروبا في
المصور الوسيطة ثم الحديثة . وما
يوضح مكانة هذه الدولة الخزرية في
زمنها ما ذكره المؤرخ البيزنطي
قسطنطين بوردو فيدرو جينس من ان
الكتب التي كان يرسلها الامبراطور
البيزنطي الى الهابا او الى امبراطور
اوروبا الغربي كانت تختتم بختم ذهب
قوته دينار . اما الكتب التي كانت
ترسل الى ملك الخزر فكانت قيمة
ذهب ختمها ثلاثة دنانير . ويقول
المؤرخ الانكليزي بيوري ان حالات
الخزر لم تكن مرتبطة عند الابطال
البيزنطيين اقل من مرتبة الامبراطور
شارلمان .

دورها

حكمت دولة الخزر البلاد الواقعة
بين البحر الاسود وبحر قزوين .
وبذلك كانت كالسد الذي حمى
الدولة البيزنطية من غزوات البلغار
والمجريين والبشكن ثم الفاكينك
والروس ، كما صدت التقدم العربي
الى الاقاليم الشمالية؛ ولعل دورهم
هذا هو الذي حدا بقسطنطين الخامس
(الخزري) الى التزوج من ابنة
ملك الخزر .
ولما قام العرب بالفتوح وحطموا
جيش الروم وازالوا الدولة الساسانية
تقدم وتقل من قواتهم نحو الاقاليم
الشمالية وحرزوا انتصارات في مناطق
ارمينية والقوقاز . غير ان العرب
توقفوا ولم يتابعوا انتصاراتهم
بسبب انشغالهم بالمشكلات الداخلية
التي قامت في اواخر الخلافة الاموية
وقد اتاح توقف العرب الفرصة
للخزر في تثبيت اقدامهم في شمال
القوقاز ؛ ثم اتخذوا في سنة ٧٤٠ م
(١٢٣ هـ) اليهودية ديناً رسمياً لهم،
علماً بانهم لم يكونوا من نسل

اسرائيل ولم يكن لليهودية سند
سياسي انذاك . ولما سقطت دولتهم
تشتتوا في القرم واوركنا وحتفاريما
وبولندة رلتوانيا، وبذلك كونوا فيما
يعتقد المؤرخون ، اصول اليهود في
هذه المناطق؛ اي ان يهود هذه المناطق
هم من اصل خزري، وليسوا من
اصل اسرائيلي .

مؤلف المؤرخين اليهود منها

وقد حاول بعض المؤرخين المحدثين
وخاصة اليهود منهم ، على تجنب
معالجة هذه الحقيقة ، وعملوا على
عدم ابرازها للقراء؛ ويتجلى هذا
واضحاً فيما كتبه محررو دائرة
المعارف اليهودية في طبعة سنة ١٩٧٣،
وكذلك فيما كتبه بولياك استاذ
التاريخ اليهودي في المصور الوسطى؛
ومن المعلوم ان يهود شرقي اوروبا
يكونون اكبر كتلة من يهود العالم ؛
وان معظم يهود الولايات المتحدة هم
من هذا الجذع ، وهم جميعاً من اصل
خزري، اي ان اصولهم ليست في
فلسطين بل في الفولجا ، وبلاذهم
القديمة ليست كنعان بل القوقاز، وهم
في دمهم اقرب الى الهون والمجر منهم
الى الساميين .

من هم الخزر

كان الخزر في القرن الثالث الميلادي
قبائل يعيشون في الخيام ، ثم اخذوا
على مر الايام في الاستقرار واتشاء
القرى والمدن، وجعلوا بيوتهم مستديرة
الشكل ، كالخيام . غير انهم لم
يتركوا حياة التجول حتى بعد
استقرارهم ، فيذكر الاصطخري في
كلامه عن عاصمتهم الاقل وليس لهذه
المدينة قرى، الا ان مزارعهم مفرشة
يخرجون في الصيف في الزروع نحو
عشرين فرسخاً ليزرعوا ، ويجلسوا
بعضه على النهر وبعضه على الصحارى،
فينقلون غلاتهم بالمجمل وفي النهر.
استطاع الخزر ان يكونوا دولة
بسطت سيطرتها على المنطقة التي
بين القرم ونهر الفولجا ، واتساعوا
حصوناً قوية على طول حدودهم ،
وسيطروا على بحر قزوين ، ومن هذا
جاءت تسمية العرب له «بحر الخزر» .
وقد وصفهم ابن سعيد المغربي بان
بشرتهم بيضاء ، وعيونهم زرق ،
وشعرهم مسترسل اشقر ، وابداهم
خضمة ، وطبعهم بارد . وقال عنهم
الاصطخري « والخزر لا يشبهون
الأتراك ، وهم سود الشعر؛ وهم
صنفان : صنف يسمون قوا خزر ،
وهم ممر يضربون لشدة السمية الى
السواد ، كانهم صنف من الهند .
وصنف بيض ظاهروا الحسنين
والجمال ، »

اصلهم

لا نعلم على وجه التحقيق اصل
الخزر ؛ ولكن الراجح انهم هاجروا
من اواسط اسيا في حدود القرن
الخامس الميلادي ، فهم اقرب الى
الشعوب التركية ؛ ولعل اصلهم
شتق في الاصل من التركية «جز»
اي «المتجول» او «البدوي» . ومن
الطريف ان نذكر ان كلمة «هزر» عند
القوزاق الروس وعند الهنغارين
معناها «الفرسان» وان كلمة
«كز» تعني في اللغة الالمانية
«يهودي» . ويذكر اليعقوبي ان الخزر
هم من نسل يافث ، ابن نوح .
ورد ذكر الخزر في مؤلفات الكاتب
السرياني زكريا الخطيب الذي ذكر
انهم كانوا يعيشون في منطقة
القوقاز . كما ذكرهم بركغوس ،
وهو مؤرخ بيزنطي زار بلاط اتتلا ،
فتحدث عن الخزر البيض ومحاولة
البيزنطيين ضمهم الى جانبهم دون
نجاح . فلما سقطت دولة الهون قام
الخزر ببعض الغزوات في منطقة
القوقاز وخضعوا خلال ذلك لدولة
البلغار ثم لدولة الترك التي حكمت
تلك المناطق فترة من الزمن . وقد
حاول الامبراطور البيزنطي هرقل
محالفتهم في حربه مع الفرس .

اخطارهم

وقد ادرك الساسانيون خطر
الخزر وهجماتهم على الاطراف
الشمالية من دولتهم، فقاموا بتحصين
باب الابواب ليمدوا الثغرة التي
يتوغل منها الخزر . فلما قضى
العرب على الدولة الساسانية وورثوا
اراضيها ، اتخذوا موقف الهجوم
فتقدموا من باب الابواب وتوغلوا في
الشمال مستهدفين فتح بلنجر وهي
اكبر المدن الخزرية القريبة من هذه
الحدود ؛ واستطاع القائد العربي
سلمان بن ربيعة الباهلي من فتح
عدد كبير من المدن والقلاع ، ولكن
قوة كبيرة من الخزر قابلته عند ابواب
بلنجر ، وانتصرت عليه، وقتل مع
حوالي اربعة الاف من جيش المسلمين
في سنة ٣٠ هـ ، فتوقفت الفتوح
الاسلامية مؤقتاً في هذا الميدان ، ثم
ان الخزر بعد ان امتوا بهذا الانتصار
حدودهم الجنوبية ، توجهوا نحو
الغرب فاضعوا قبائل المجر والبلغار
واوكرانيا والقرم ، وكونوا دولته
ضمت هذه الشعوب .
ثم جدد العرب حملاتهم ، واهزوا
في بعض هذه الحملات نجاحاً كبيراً
رغم ان الخزر ابدوا مقاومة وجلاء،
فقد استطاع مسلمة بن عبد الملك فتح
بلنجر وسمندر، ولكنه عاد وانسحب
منها . وفي سنة ١٢٠ هـ قاد مروان

بن محمد ، وكان واليا على الجزيرة وارمينية ، حملة استطاعت التوغل والسيطرة على تلك البلاد ، واشتباك مع خاقان الخزر فانتصر عليه ودمر جيشه واضطره الى الفرار الى الفولغا ، غير ان مروان فاوض خاقان على الصلح فقبله خاقان واعلن اسلامه ، ثم انسحب مروان ولم يتابع انتصاراته ، وانشغل باخماد الثورات التي قامت في بلاد الشام والجزيرة وحددت مؤخرته ، وكانت هذه اخر محاولة عربية للتوغل في تلك الارجا ، وبذلك وقفت حدود الدولة الاسلامية عند جبال القفقاس ، كما توقفت في اوربا بعد معركة بواتيه عند حدود البرابيس .

غير انه في هذه الفترة بدأت في الدولة البيزنطية اضطرابات داخلية جرت الخزر الى التدخل في شؤون هذه الدولة والاعتماد بها ، وبسبب حوادث ودسائس معقدة استطاعت دولة الخزر ان تفرض على القسطنطينية امبراطورا من صناعها .

حضارتهم

وفي اعقاب هذه الفترة وصلتنا اوسع المعلومات عن احوال الخزر ، وذلك بفضل رسالة كتبها ابن فضلان الذي رافق بعثة ارسلها في سنة ٩٤٢ م (٣٠٩هـ) الخليفة المتوكل الى بلغار الفولغا ، وغرضها الظاهري نشر الدين الاسلامي وبناء الجوامع ولكن ربما كان وراءها اغراض اخرى وهي محاولة عقد اتفاقيات دبلوماسية ، ويتبين من وصف ابن فضلان ان البلغار ، وكانوا انذاك يقيمون عند الفولغا ، كانوا متأخرين نسبيا في الحضارة ، فمعظمهم بدو يسكنون الخيام ، ولهم بعض العادات الغريبة على المسلمين ، ولكنهم كانوا يخافون الخزر الذين كانوا يقيمون في بيوت مبنية بالحجر ، اي ان الخزر كانوا اكثر تقدما في الحضارة ، واكثر عسكريا .

تأثر الخزر بالفن الساساني ، ولكنهم اتيوه ونشروه في البلاد حتى وصل الى هنغاريا ، وكانت عاصمتهم في البداية بلنجسر ، فلما تعرضت لهجمات العرب نقلوا عاصمتهم الى الشمال ، ثم استقروا اخيرا في الاقل عند مصب الفولغا ، وقد وصف عدد من الجغرافيين العرب مدينة الاقل ، ومن اوضح وادق هذه الاوصاف ما ورد في كتاب المسالك والممالك للاصطخري حيث يقول : « واصل قطعتان : قطعة على غربي هذا النهر المسمى اقل ، وهي اكبرهما ، وقطعة على شرقيه » ، والملك يسكن في الغربي منها ، وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ، ويحيط بها سور ، الا انه مفترش البناء ، وابنتهم خركاهات لبود الا شيئا يسيرا بشي من طين ، ولهم اسواق وحمامات ،

وفيها خلق ومن المسلمين ، يقال انهم يزيدون على عشرة الاف مسلم . ولهم نحو ثلاثين مسجدا ، وقصر الملك بعيد من شط النهر ، وقصره من اجر ، وليس لاحد بناء من اجر غيره ، ولا يسوغ الملك لاحد ان يبني بالاجر . ولهذا السور ابواب اربعة : منها الى ما يلي النهر ومنها الى ما يلي الصحراء على ظهر هذه المدينة ، ملكهم يهودي يقال ان له من الحاشية نحو اربعة الاف رجل . ويقول ايضا : وللملك سبعة من الحكام من اليهود والنصارى والمسلمين واهل الاوثان ، اذا عرض للناس حكومة قضى فيها هؤلاء ، ولا يصل اهل الحوائج الى الملك نفسه ، وانما يصل الى هؤلاء الحكام ، وبين هؤلاء الحكام يوم القضاء ، وبين الملك سفير يرسلونه فيما يجري من الامر وينتهون اليه ، فيرد عليهم امره وبعضونه .

الخزر يعتقدون اليهودية

ظاهرة فريدة

الخزر هم الشعب الوحيد مسن شعوب العالم ، الذين اعتنق ملوكهم اليهودية ؛ ولعل هذا التهود راجع الى عوامل سياسية ؛ ذلك انهم اعتنقوا انفسهم قوة سياسية ثالثة بجانب العرب والروم ؛ وقد كونوا مع كل من هاتين القوتين علاقات سياسية وتجارية ودبلوماسية ، ولكنهم لم يحاولوا الاندماج في اي منهما ، وأثروا الاحتفاظ بكيانهم المستقل ليستطيعوا القيام بدورهم .

دوافعها

غير انهم لاحظوا ان دينهم الشاماني القديم ابتدائي لا يسو الى مستوى الاسلام او المسيحية ، ولا يساعد على منح الحكام مكانة مرموقة كالتي يمنحها الدينان الاخيران لحكام رعاياه ؛ لذلك راوا انه لا بد لهم من اتخاذ دين خاص يحفظ كيانهم ومكانتهم ، فوقع اختيارهم على اليهودية ، وهي دين مساوي يعرفه المسلمون والنصارى ، ولا يؤدي اعتناقه الى الخضوع والانصيهار في الاسلام او المسيحية . غير انهم لم يلتزموا بالتزمت اليهودي ولم يجبروا رعاياهم على اعتناق اليهودية او مراعاة قيودها المرحقة .

ولا بد ان هؤلاء الملوك كانوا قد عرفوا شيئا عن اليهودية واطماعها وعقائدها من لجا اليهم من المضطهدين على يد اباطرة البيزنطيين وخاصة لبو الثالث الذي اصدر مرسوما يقضي بتنصرهم وتصفيتهم ؛ وقد استمرت هجرة اليهود اليهم حينما قام بعض

الاباطرة فيما بعد بعصر من لم ينتصر من اليهود بالمعاصر . وقد جلب اليهود الفارون من الاضطهادات البيزنطية الى بلاد الخزر ثقافتهم وافكارهم وحروفهم الكتابية ، حتى ان ابن النديم يقول : « والخزر تكتب بالعبرانية » . يقول المسعودي ان ملوك الخزر تهودوا في زمن هارون الرشيد . ويروي البكري ان ملك الخزر اراد ان يعتنق دينا سماويا ، فاروحى له يهودي ان يفحص هذه الاديان ، فبما بالنصرانية ، وطلب رجلا منها ، فلما حضر سألته اليهودي فآثر النصراني ان دين اليهود حق وانه يؤمن بنبو موسى وبالتوراة . ثم طلب مسلما غير ان المسلم توفي قبل ان يصل الى حضرة الملك . وبذلك صفا الجو لليهودي . ولعل هذا الخبر اسطوري ، ولكنه يعكس ان ملك الخزر اخذ من الدين اليهودي خطه العام وهو الاسمان بالتوراة وبنبو موسى ، دون التوغل في التفاصيل المفرقة .

اما الرواية اليهودية عن تهود ملك الخزر فقد اوردها حسداي بن شبروت ، وهو طبيب الخليفة الاندلسي عبدالرحمن الناصر ومنظم ماليته ؛ فقد ذكر حسداي انه ارسل سفارة الى ملك الخزر يسأله عن سبب اعتناقه اليهودية ، فاجاب ملك الخزر بأن الملك بولي ، وهو احد اجداده ، رأى في الحلم نورا ارشده الى اليهودية ووعده ببقاء ملكه الى الابد اذا تهود ، فلما استيقظ بولي جمع منسلي الاديان الثلاثة وناقشهم ثم اختار اليهودية دينا له .

واكد ملك الخزر في جوابه الى حسداي ان قومه لا ينتمون الى الساميين وانهم من نسل يافث وحفيده طفرمة الذي تحدر منه الترك كما تحدرت منه اقوام اخرى . وذكر فتوح اجداده ووصولهم الدانوب الذي حدث بعده تهود الملك بولان ، ثم اعقب بولان ملك اهتم بالثقافة اليهودية ؛ اي ان التهود اتخذ مراحل متعاقبة بدأت بطرد السحرة وانتهت بتثبيت الثقافة اليهودية . وذكر ملك الخزر في رسالته ايضا انه يقف بوجه تقدم الروم الذين لولاه لتوغلوا في تخريبهم ولوصلوا بغداد نفسها .

وقد تحدث بعض المؤلفين والحالة اليهود عن الخزر وتهودهم ، كما ذكر بعضهم عددا من الخزريين تواجدوا في بغداد والاسكندرية والاندلس والقسطنطينية . واكدت المصادر ان هؤلاء اليهود لبسوا من اصل اسرائيلي وانهم من القرانيين ، اي من الفرقة التي لا تؤمن بشروح التلمود .

انحطاط دولة الخزر

لم يحصل الخزر من تهودهم على مكانة مرموقة ، بل بالعكس ان

اليهودية هي التي استفادت من قوتهم العسكرية والاقتصادية : والواقع انه لم يرد اiban القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ذكر لحروب خاضها الخزر اللهم الا مرتان في القرن الثامن، وكان احدهما عندما ماتت ابنة خاقان الخزر وهي في مخاضها، وكانت قد تزوجت والي ارمينية المسلم، فارتاب ملك الخزر من سبب الوفاة، وظنه محاولة متعمدة لقتلها، فقام بهجوم على اطراف الدولة الاسلامية؛ وفيما عدا ذلك فقد ساد السلم والاستقرار في العلاقات مع المسلمين والروم .

● تقدم الفايكنج والروس

غير انه ظهر في القرن التاسع الميلادي خطر جديد اتبعته من الفايكنج الذين يسمون في المصادر المعاصرة «الروس» . فقد تقدم هؤلاء الفايكنج من سكندنافيا سالكين الانهار والبحار بالسفن، وساروا بـتلين اتجاه احدهما الى الغرب فنزوا ايسلندة وابرلندة ونورماندي وبساريس وشواطئ الاندلس وايطاليا ثم وصل الى القسطنطينية فدخلها، وبذلك برزت اهمية الخزر في الصمود بوجه الفايكنج وحماية البيزنطيين والمسلمين من اخطار محزوهم .

اما الرتل الثاني من الفايكنج فقد تقدم من شمالي روسيا سالكا نهري الفولغا حتى وصل بحر قزوين؛ وسلك نهري الدينبير ايضا حتى وصل البحر الاسود؛ وقاده هذا التقدم الى الاصطدام بالبغار والخزر لانه هدد املهم في بلاد يسكنها السلاف . وقد ظل هؤلاء «الروس» يغزون الاقاليم الجنوبية فترة من الزمن، ثم استقروا وتأثروا بالحضارة السلافية واصطبغوا بها .

وللوقوف بوجه التقدم الروسي تعاون الخزر والسلاف على بناء قلعة سركل في مصب الدون، فضلا عن

حصون اخرى شيدها الخزر لهذا الغرض . غير ان الروس استطاعوا تثبيت اقدامهم : ثم سيطروا على كييف وجعلوها مدينة زاهرة .

واستغل الروس في احدى الفترات انتشار الجيش البيزنطي في بعض الحوادث بعيدا عن العاصمة، فقاموا بغزو القسطنطينية ونهب كافة القرى والاديرة حولها . وقد نهبت هذه الغزوة البيزنطيين الى خطر الروس فحاولوا التفاهم معهم، واخذوا يتسخدمونهم في الاسطول وفي الجيش، وسمحوا لهم بالتجارة مع القسطنطينية بشروط خاصة . ثم تنصرت اولجا اميرة كييف، واستقرت النصرانية في تلك الامارة بعدئذ، وبذلك توطدت العلاقة بين البيزنطيين والروس على حساب الخزر الذين اخذت احوالهم بالتدهور .

المجريون

ومن الشعوب ذات الصلة الوثيقة بدولة الخزر في تلك الازمنة هم المجريون وهم قبائل جاءت في الاصل من مناطق الاورال، وسكنوا بين الدون وكوبان ولهم لغة خاصة لا تشبه ممن يجاورهم الا لغة اهل فنلندة . وكانت علاقتهم طيبة مع الخزر، فكانوا يجيئون للخزر الضرائب من الشعوب المجاورة وخاصة من البغار؛ ثم عين لهم خاقان الخزر ملكا منهم هو ارباد الذي يعتبر اول ملك هنغاري؛ وقد قاد هذا الملك المجريين واطنهم هنغاريا حيث لا يزالون مقيمين فيها حتى اليوم . وقد انضم عدد من الخزر الى المجريين فالتوا في تكوينهم العرقي .

● سقوط الدولة

تقدم الروس

ادت هجرة القبائل المجرية نحو الغرب وتأسيس امارة كييف التي تطبق الحصار على دولة الخزر من الغرب؛ ثم ظهر لهم خطر جديد هددهم من الشرق جاء من الروس الذين اخذوا يتقدمون للتجارة احيانا وللنهب احيانا اخرى، وقد وصف المسعودي احدى غزوات الاسطول الروسي لمدينة امل سنة ٣٠٠ هـ حيث قال في كلامه عن الروس : «وقد كان بعد الثلاثمائة (من الهجرة) ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب، في كل مركب مائة نفس فدخلوا خليج ينطس المتصل ببحر الخزر، وهناك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر . فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج واسلوا ملك الخزر في ان يجتازوا البلاد وينحدروا في نهريه، فدخلوا نهري الخزر ويتصلوا ببحر الخزر . فاباحهم ذلك، فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه وساروا مصدين في تلك الشعبة من الماء حتى وصلوا الى نهري الخزر واتحدوا فيه الى مدينة امل . فانتشرت مراكب الروس في هضبة البحر وطرحت سراياها الى الجبل والديلم وبلاد طبرستان واسكون، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ونحو بلاد اذربيجان . فسفكت الروس الدماء واستباحست التسوان والولدان، وغنمت الاموال، وشنت الفارات واخربت واحرقت؛ فضج من حول هذا البحر من الامم، لانهم لم يكونوا يصدون في قديم الزمان عسدا بطرقهم فيه، وانما تختلف فيه مراكب التجار والصيد . وكانت الروس تآوى عند وجوعها من غاراتها الى جزائر تقرب من النفاطة

على اميال منها، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم، فاستعد الناس ورتبوا في القوارب ومراكب التجار، وساروا نحو تلك الجزائر، فمالت عليهم الروس، فقتل من المسلمين وغرق الوف، واقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لاحد ممن جاور هذا البحر من الامم اليهم والناس مهتابون لهم، حذرون منهم، لانه بحر عامر لمن حوله من الامم، فلما غنموا وشتموا ما هم فيه ساروا الى نهري الخزر ومصبه . ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم افة عظيمة، وعلم بشانهم اللارسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين، فقالوا لملك الخزر خلنا وهؤلاء القوم فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين وسفكوا الدماء وسبوا النساء والولدان، فلم يكن لملك منهم وبعت الى الروس فاعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم؛ وعسكروا وخرجوا يطلبونهم ملحددين مع الماء، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس عن مراكبها وصافوا المسلمين، وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة امل وكان المسلمون من نحو خمسة عشر الفا بالخييل والسدد، فاقام الحرب بينهم ثلاثة ايام، ونصر الله المسلمين عليهم، واخذهم السيف، فمن قتل وغريق، ونجا منهم نحو خمسة الاف، وركبوا في المراكب الى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر، فمنهم من قتله اهل برطاس، ومنهم من وقع الى بلاد البرغز الى المسلمين فقتلهم وكان من وقع عليه الاحصاء من قتله المسلمون على شاطئ نهري الخزر نحو من ثلاثين الفا . ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرناه .

وقد جدد الروس هجومهم بعد ثلاثين سنة فاحتلوا بردعة، ثم تماقت بعد ذلك حملاتهم .

امارة كييف

اما امارة كييف فقد قامت بحملة نجحت في اخذ مدينة سركل، فكان ذلك ايذانا بزوال دولة الخزر؛ وكان ملكهم فلاديمير قد اعتنق النصرانية الارثوذكسية بعد ان حاولت مختلف الاديان جلبه اليها . ومن الطريف ان تذكر انه عندما حاول اليهود سلبه لثاذا اقتناعه باعتناق اليهودية سألهم لماذا لم يقيموا دولة في فلسطين؟ فاجابوا لان الله غضب على اجدادهم لما اقترفوه من آثام وشروء فشتتهم بين الناس؛ فلما سمع فلاديمير جوابهم طردهم قائلا: كيف تستطيعون هداية الناس وانتم مشتمون قد يؤثم بغضب من الله . وقد حاولت الدولة البيزنطية الاعتماد على امارة كييف في حمايتها، غير انها اخطأت التقدير، لان امارة

غزو المغول وأثره

ولما غزا المغول أوروبا في كثير من الشعوب من وجهها ، ولجأ بعضهم ومنهم الكومان إلى هنغاريا . ثم اجتاحت هذه البلاد في القرن الثالث عشر جيوش جنكيز خان تهاجم وتلاها الموت الأسود (١٣٤٧) وهو وباء هائل اجتاحت البلاد وقتل معظم السكان ، وفر كثير منهم تاركين البلاد خرابا ليس لها من يعمرها . وهكذا هاجرت الشعوب ، لأن الهجرة هي السبيل الوحيد لبقائها في الحياة إذا أرادت ذلك ، فكان ممن هاجر هؤلاء الخزر فلحقوا بمن سبقهم من أبناء جلدتهم الذين استوطنوا في أوكرانيا وجنوب روسيا ، ومن مظاهر هذه الاسماء الخزرية لكثير من الأماكن في هذه المناطق وفي الكاربات وكذلك من المقاطعات الشرقية من النمسا ، غير أن عددا منهم ظل في الكرج وفي القفقاس ولا يزال حتى اليوم في شرقي القفقاس عدد من اليهود يسمون أنفسهم دانج جو قوتي أي يهود الجبال .

الهجرة إلى بولندة

وفي سنة ٩٦٢م ، وهي السنة التي تدمرت فيها مدينة سركل الخزرية ، كونت القبائل السلافية حلفا برعاية البولنديين ، وكان هذا الحلف نواة دولة بولندة ، وقد لعب اليهود دورا ملحوظا في هذه الأحداث ، وبروي أن المرشحين لعرش بولندة كان رجلا يهوديا اسمه ابراهام ويكوفينك ، وسواء كان هذا الخبر صحيحا أم لا فإنه يدل على أن اليهود ، وهم هنا من أصل خزري ، كانت لهم قوة وعدد ملحوظ في بولندة آنذاك ، وأن البولنديين أرادوا الاستفادة من خبراتهم في الإدارة والمالية .

غير أن أعدادا أخرى من اليهود أجبرت على الهجرة من بلاد الخزر وأوطنت الأقاليم الغربية ، ومن هؤلاء عدد من الأسرى الذين نقلوا إلى ليتوانيا ثم إلى بولندة . ولعل منهم أيضا عدد من القرائين . وبذكر الرحالة الفرنسي دي لانوني أن عددا من الجاليات اليهودية كانوا يقطنون في أرجاء مختلفة من شمال بولندة ولتوانيا ويتكلمون اللهجة التركية مما قد يدل على أن أصولهم خزرية . ولا تزال هذه اللغة هي المستعملة في العبادات الدينية لليهود القرائين في عدد من المدن مثل تروكي وفلنا ولوغزك وهاليج .

امتيازاتهم في بولندة

اتجه البولنديون عند تأسيس دولتهم نحو الغرب ، ولما كانوا

وفي القرن الثاني عشر الميلادي انتشرت من الخزر تبوءة يظهر مسيح بخلص بيت المقدس . وقد نشر هذه التبوءة خزري يهودي اسمه شليمون ابن دوجي وعاون في نشرها ابنه مناحيم وقد ادعى شليمون هذا أنه إيليا وأن ابنه هو المسيح المنتظر ؛ وكانت في ذلك عددا من اليهود في مختلف الأنظار ، وحاول أن يسيطر على بعض البلاد إلا أنه فشل في هذه السيطرة . وقد انتشرت دعونه في البلاد وظلت ذكراه قائمة امدا . ويروي أن النجمة السداسية التي تتخذها إسرائيل شعارا لها هي من إبداع شليمون هذا .

التشتت

لقد وقعت دولة الخزر في سنة ٩٦٥ امبراطوريتها ، ولكنها لم تفقد كيانها . بل ظلت دولة صغيرة ذات حدود واضحة حتى القرن الثالث عشر حيث أزالها المغول نهائيا من الوجود . وقد أرسلت قبيل زوائها إلى البلاد السلافية فروعا لتشر اليهودية ، فكانت بذلك أوسع وأقوى منطقة لليهود في العالم الحديث ؛ وأخذ اليهود ينساحون إلى مختلف الجهات تجارا ورحالين وقوما لا وطن لهم إلا حيث يقبضوا موقتا في محلات محصورة تسمى الجيتو ينشؤون فيها مدارسهم وعباداتهم وينتظرون مسيحا ينقذهم .

الهجرة إلى المجر

ففي هنغاريا مثلا انضم عدد من الكابارين إلى المجرين وهاجروا إلى هنغاريا . وقد بدأت هذه الهجرات قبل تدمير دولة الخزر ، ثم استمرت بعد ذلك فلما انتصر سانت إصطفان فقد اليهود بعض مكانتهم ولكنهم لم يفقدوا كيانهم . وقد صدر في المجر ما يسمى المرسوم الذهبي ، وهو شبه المانجا كارتا الإنكليزية ، وحرم فيه اليهود من وظائف سك النقود وجسم الضرائب والسيطرة على الممالك الملكية ، مما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بهذه الامتيازات قبل ذلك . ومن المعلوم أن ماله الملك المصرويه كان يشرف عليها رجل اسمه تيكا وهو يهودي من أصل خزري لمجدورا خطيرا في السياسة وظل باقيا في منصبه مدة أحد عشر سنة ورغم صدور المرسوم الذهبي ، ولم يعزل عن عمله إلا بعد ما تدخل البابا وأجبر الملك على ذلك . فذهب تيكا إلى النمسا ولكنه عاد إلى هنغاريا في عهد الملك بكلا الرابع ، وهو ابن الملك أندريه ؛ وظل في عمله حتى قتله المغول عندما غزو هنغاريا .

كيف لم تدم طويلا ، بل سرعان ما انهارت أمام تقدم القفجاق الأتراك الذين بسطوا سلطانهم على بلاد واسعة امتدت حتى هنغاريا ، وظلت مهيمنة من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر حيث اكتسحهم المغول . وكان موقف هؤلاء القفجاق معاديا للبيزنطيين ، وما تجدد الإشارة إليه أن فرعا آخر من الأتراك الفزنية ، وهم السلاجقة تقدموا في آسيا الصغرى وسحقوا الجيش البيزنطي وأسروا امبراطوره في معركة ملاذكرد الشهيرة .

فترة مظلمة

لقد سيطرت على هذه الأقاليم خلال هذه الفترة عصور مظلمة لانعلم فيها عن شعوب تلك البلاد أية تفاصيل . والمصادر الوحيدة عن هذه الفترة هي المصادر العربية ، وهي بدورها مقتضبة وغير متفصلة في معلوماتها ؛ فيقول ابن حوقل أن الروس دمروا كليا خزران وسمندر والائل . غير أن المصادر الروسية لا تذكر حملة قام بها الروس آنذاك ، ويلاحظ أن ابن حوقل يصل بين خزران والائل ، علما بأنها مدينة واحدة ، كما أنه لا يذكر سركل . ثم أنه يذكر أن الائل كانت لا تزال في زمنه مركزا للتجار الروس ومن المحتمل أن الروس غزوا الائل ففر أهلها ثم عادوا فينوها . ويقول ابن مسكويه أن الخزر استعادوا الائل بمساعدة المسلمين . أما المقدسي فلم يشر إلى غزو الروس ويكتفي بالقول أن أهل الائل ساروا نحو البحر ، ثم عادوا إلى مدينتهم بعد أن اعتنقوا الاسلام .

الخزر في أواخر العصور الوسطى

وقد ورد ذكر الخزر في المصادر المتأخرة ، مما يدل على عدم اندثارهم ؛ غير أنه لم ترد معلومات عن قوتهم وتناميهم مما يدل على مسكني تضعفهم وضعفهم ثم زوال دولتهم . غير أن زوال دولتهم لا يعني زوال آثارهم في أماكن وشعوب متعددة ، فيذكر ابن العبري أن تلك ابوسلجوق كان في الأصل قائدا في جيش خاقان الخزر ثم انفصل عنه فأسس الدولة السلجوقية . ويقول ابن حوقل أن ابوسلجوق كان من أشرف الترك الخزر ويقول ابن حوقل بأن سلجوق كان في خدمة ملك الخزر ثم ترك تلك الخدمة . وكل هذه النصوص تظهر وجود علاقة بين الخزر وبين مؤسس الدولة السلجوقية . ويتردد من المصادر العربية ذكر المسلمين ومكانتهم في تلك المنطقة ، كما أشارت الملاحم الأدبية البولندية إلى الخزر .

متأخرين عن الاقاليم الغربية فقد عملوا على تشجيع الهجرة الى بلادهم ليستطيعوا مجارات الغرب وبذلك هاجر اليهم اقوام من الخزر والارمن وغيرهم . وفي سنة ١٢٦٤ اصدر الملك بوليسلاف مرسوما حدد فيه حقوق المهاجرين اليهود ، فاباح لهم الاستفاد بكنائسهم ومدارسهم ومحاكمهم ، وبتملك الاراضي وممارسة التجارة واحتراف ما يريدونه من الحرف . ثم اباح لهم الملك ستيفان بافوري (١٢٧٥-٨٦) انشاء برلمان خاص بهم يجتمع مرتين في السنة وله حق فرض الضرائب على اليهود . وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر ارسل البابا كليمنت الرابع الى احد امراء بولندة يشكو فيه من كثرة الممابد اليهودية في مدن بولندة . ومن ارتفاع بنائها وكثرة زخارفها وطغيانها في الفخامة على الكنائس المسيحية . ثم اصدر امرا يمنع فيه اليهود من اقامة اكثر من كنيس واحد في كل مدينة كل هذا حدث في الوقت الذي كانت فيه جيوش المغول تبتلع في غزوها سهوب روسيا ، مما يدل على ان معظم يهود بولندة كانوا من الخزر القادمين من وجه المغول ، وانهم كانوا في وضع مالي جيد . ولعل عددهم لم يقل عن ربع مليون ، من المجموع الكلي ليهود اوربا الوسطية البالغ مليوناً في تقدير دائرة المعارف اليهودية . وهذا يدل على ان يهود الخزر كونوا نسبة عالية من يهود شرقي اوربا ، ومن الطبيعي ان معظمهم هاجر الى بولندة ولتوانيا ، والى هنغاريا والبلقان .

مكانة عالية

كانت لليهود مكانة متفوقة في بولندة وهنغاريا ، فكان منهم مدراء المال وحياة الضرائب والمسيطرون على احتكارات الملح . ويلاحظ ان النقود البولندية المسكوكة في هذا الزمن كانت عليها حروف عبرية . وقد امتد نفوذ اليهود الاقتصادي الى بلاط الامراء ايضا . وامتلك بعض اليهود مزارع واسعة . غير انهم من حيث العموم لم يقبلوا على الزراعة كثيرا ، لان النظام الاقتصادي يمنع مجبرة الفلاحين ، كما ان مناخ بولندة يختلف عن مناخ بلاد الخزر ، هذا فضلا عن ان الزراعة لا تؤتي ارباحا كبيرة . وقد أدى هذا الى انصراف اليهود الى الصناعة والتجارة . وكان يهود اوربا يعيشون في محلات خاصة محاطة بأسوار تقفل ابوابها في الليل . ولم يكن لليهود مجاوز هذه المحلات التي أصبحت بسبب ذلك مزدهرة السكان وتسم بالقذارة . اما في بولندة فكان اليهود يسكنون في محلات مفتوحة يمارسون فيها

اعمالهم في الصناعة والتجارة ، وقد احكروا التجارة بالخشب والنقل العربات الذي ظل سائدا في بولندة حتى دخول السكك الحديدية اليها . واشتغل عدد من اليهود في ادارة الفنادق والخانات ، وفي المطاحن وتجارة الفراء . ولا بد انهم جلبوا هذه الحرف معهم من بلاد الخزر ، لان المحلات المغفلة الغربية لا تفسح المجال لنمو مثل هذه الحرف .

ويلاحظ ان زخرفة معابد اليهود في بولندة يختلف عن زخرفة المعابد في غربي اوربا ، وان البنية اليهود البولنديين من القفطان العبري الطويل ، وكذلك اغطية رؤوسهم تشبه ما هو مستعمل عند الاقوام الساكنة في جنوب روسيا .

● من أين جاؤوا

يتبين مما تقدم (اي ان الامنة الخزرية اختفت من مسرح التاريخ (٢) انه ظهرت مراكز يهودية في المناطق المجاورة لمواطن الامة الخزرية ، وخاصة تلك الواقعة في الجهات الشمالية الغربية (٣) ان عددا كبيرا منهم هاجر الى بولندة غير ان السؤال الذي يبرز هو : هل استقر في بولندة يهود هاجروا من غرب اوربا .

يهود اسبانيا

ان اقدم الجاليات اليهودية في اوربا الغربية ، ما عدا اسبانيا ، هي الجاليات التي كانت تقيم في فرنسا والراين . وقد استوطنت تلك الجاليات هذه الاقاليم بعد ان طردهم الرومان من فلسطين وشقتوهم . ثم انتقل بعضهم الى انكلترة في زمن وليسم الفاتح ليمارسوا نشاطهم الاقتصادي والمالي بعد ان تعدد نشاطهم التجاري الذي عرفوا به في المصور الوسطى ، بسبب نمو الطبقة الوسطى في اقاليم غربي اوربا . فانصرف اليهود الى الامور المالية واعتمدوا على الطبقة الحاكمة . وقد بلغ عدد المهاجرين الى انكلترة في زمن وليم الفاتح الفين وخمسمائة .

الاضطهادات في اوربا

وقد تتابعت الاضطهادات على الجالية اليهودية في فرنسا ، وانتهت بان طردهم فيليب الجليل من فرنسا كليا . اما يهود فرنسا الحاليون فقد جاؤوا من اسبانيا ابان القرن السابع عشر .

اما يهود اثنان فلا نعلم اصولهم ، غير ان الاشارات الى وجودهم تكثر في القرن الثالث عشر ، اي عندما ازداد عدد المهاجرين اليهود من بلاد الخزر

الى بولندة . وقد تردد ذكرهم في المدن الواقعة على الراين مثل متز وستوتجارت وكولون والالزاس . وقد ذكرهم الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي واشار الى قلة عددهم . ولما بدأت الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر ذهب عدد من اليهود في المدن الالمانية لانهم رفضوا التنصر والتعميد ، وبذلك لم يبق في المانيا الا عدد قليل من اليهود الذين اختفوا او التجأوا الى بعض امراء القلاع ثم عادوا بعد هدوء الاحوال الى مدنهم . ولكن لا يوجد أي دليل على انهم هاجروا الى بولندة او الى اوربا الشرقية .

ثم استعاد اليهود نشاطهم في القرن الثالث عشر وتردد ذكرهم في عدد من المناطق الغربية من الراين والبلاتينات وغريبورغ واولسم وهيدلبرغ . غير انهم سرعان ما واجهتهم تكبات جديدة بدأت بطردهم كليا من بلاد فيليب الجليل ومصادرة اموالهم . فهاجروا الى بولفانسي وبورغنندي واكويثانيا . غير انه لا توجد اية اشارة الى هجرة احد من هؤلاء اليهود الى المانيا .

وجاءت النكبة الثانية من الطاعون الاسود الذي ظهر في التركستان ومنها انتشر غربا حتى اجتاح اوربا والفس كثيرا من سكانها . ووافق انتشاره اشاعة عمت بان اليهود عملوا على نشره وانهم يسمون مياه الشرب ، فتعرض كثير منهم للقتل فضلا عن مات بالطاعون . وبذلك خلت المانيا من اليهود الا القليلين الذين لجأوا الى قلاع الامراء . وكل هذا يدل على ان يهود بولندة لم يهاجروا من المانيا .

اما يهود انكلترة وفرنسا وهولندة في القرن السابع عشر فقد جاؤوا من اسبانيا .

فالقول بان يهود غرب اوربا هاجروا من اقليم الراين باعداد كبيرة الى بولندة وانهم اخترقوا اراضي المانيا المعادية لهم ، هو قول لا اساس له من الصحة ولا يتسجم مع الحجم الصغير ليهود الراين ورغبتهم في البقاء هناك . هذا فضلا عن عدم وجود اية اشارة في الكتب الى مثل هذه الهجرات شرقا .

● تيارات متقاطعة

وعلى ضوء ما سبق يمكن ان يفهم المرء اتفاق المؤرخين البولنديين على ان معظم اليهود كانوا عديدا في بلاد الخزر . والنق ان المرء ليس الى رأي المؤرخ اليهودي كوشير بان كافة يهود شرق اوربا هم من اصل خزري خالص .

لقد كانت توجد في اواخر العصور الوسطى جاليات يهودية تقيم في فيينا وبراغ والالب السكارنشي وايستريا ؛ وان بعض هذه الجاليات هاجرت الى ايطاليا وبولنده وهنغاريا . فمن اين جاءت هذه الجاليات في الاصل ؟ قد يمكن الافتراض بان هذه الجاليات جاءت من ايطاليا التي قطنها اليهود منذ زمن الرومان لغير انه لا يوجد ما يؤيد هذا الافتراض . بل بالعكس توجد ادلة على ان بعض يهود الخزرج هاجروا الى ايطاليا . وقد تبني بعض المؤرخين رواية اسطورية مفادها ان المقاطعات النمساوية في العصور السابقة لانتشار المسيحية كان يحكمها امراء يهود . ولم تذكر المصادر اصول هؤلاء اليهود ، غير ان اسماهم التي ذكرتها الرواية تدل على ان اصولهم من منطقة الخزرج ومن المعلوم ان النمسا ظلت طوال النصف الاول من القرن العاشر تحت حكم الهنغارين . وان المجرين وصلوا تلك البلاد مع قبائل الكبر الخزرجية في اواخر القرن التاسع . ولم يكن الهنغارون قد اعتنقوا النصرانية ، اي انهم لم يعرفوا غير اليهودية دينا موحدا . وجدير بالذكر ان المؤرخ البيزنطي جون سيناموس ذكر وجود اليهود في الجيش الهنغاري . وكل هذا يلقى ضوءا على اصول هذه الاسطورة .

دليل لغوي

ومما يناقض الادعاء بان يهود شرقي اوربا جاؤوا من بلاد الراين هو التركيب اللغوي لليديش ، وهي لهجة العوام اليهود ، وكانت شائعة آنذاك ولا تزال مستعملة عند بعض الاقليات اليهودية في كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة . وهذه اللهجة هي خليط غريب من العبرية والالمانية الوسطية والسلافونية وعناصر اخرى ؛ وهي تكتب بالحروف العبرية . وقد بدأ الاهتمام بدراستها منذ سنة ١٩٢٤ حين نشر العالم اللغوي ميسنر دراسته عنها . ويتبين من هذه الدراسة انه ليس في اليديش اية كلمات المانية مما يستعمل في منطقة الموزيل او فرانكفورت او المناطق المجاورة لفرنسا . والكلمات المانية التي وجدت ميسنر في اليديش كلها مما يستعمل في المانيا الشرقية . ويلاحظ ان اليديش لغة عامية ليس لكتابتها قواعد محددة ، فكل فرد يكتب كلماتها كما يريد دون التقيد بآية قاعدة .

التأثر بالثقافة الالمانية

ويلاحظ ان بولنده عملت في عهد ملكها

كازيمير العظيم على جلب الالمان الى بولنده لاعمارها ، والمحدثت عليهم الامتيازات ، وامنحت لهم الحرية والحقوق فنشطوا واتشأوا جامعة كركاو ، وساعدوا على تقدم بولنده وجعلها مركزا اقتصاديا وفكرا كبيرا ، وانتشرت بين البولنديين الثقافة الالمانية وازداد تقديرهم لها .

وقد تأثر الخزرج المهاجرون الى بولنده بدورهم ، فاحدوا يقيسون من الثقافة الالمانية وبدرونها . ونم يفت بوجه هذه الثقافة الالمانية الى الفرقه اليهودية المعروفة باسم القرائين ، وكان اتباعها يميلون الى الزهد والى كره تعاليم علماء الدين اليهود . وجدير بالملاحظة ان القرائين في سنة ١٨٦٧ كان عددهم في روسيا (التي كانت تضم شرقي بولنده) يبلغ ١٢٨٩٤٢ ومنهم ٩٦٦٦ لفتهم التركية (وربما كان اصلهم خزرجي) ولم يكن يتكلم اليديش منهم يتجاوز ٢٨٣ . ويرجع عدم تكلم يهود بولنده اللغسة التركية الى انهم تركسوا استعمالها ، وبذلك فعلوا ما يفعله احفاد المهاجرين الى الولايات المتحدة . وهذه عادة مألوفة عند اليهود . وكان بدء النهضة الاوربية ايدانا ببدء العصور المظلمة اليهودية ، فقد اصبحت تطبق بحقهم قوانين صارمة ، ويفصلون عن الناس ، ويحرمون من الوظائف والحرف المحترمة ، ويميزون بالملابس . وصاروا يعزلون في محلات مغلقة هي الجيتو .

اما في بولنده فقد تمتع اليهود ببعض الحرية حتى اواخر القرن السادس عشر حيث ادى تطبيق الجيتو وكثرة المهاجرين الى ازدياد مناطق سكنهم والى سوء احوالها الصحية ؛ وقد اضطرهم ذلك الى الهجرات الى هنغاريا وبوهيميا ورومانيا والمانسا حيث حلوا محل من زال بعد الطاعون الاسود .

يهود اوربا قفقاسيون وليسوا من فلسطين

كل هذا يظهر ان معظم اليهود في اوربا ليسوا من فلسطين في الاصل بل انهم قفقاسيون في الاصل ؛ وان مجرى الهجرة اليهودية لم يسر من البحر المتوسط الى فرنسا ومانيا ، ولكنه كان يسير دائما نحو الغرب مبتدئا بالقفقاس فاوكرانيا فيولنده فاوروبا الوسطى . وهذا لا ينفي ان عددا من اليهود جاؤوا من الغرب ؛ ولكن معناه ان اكثريه اليهود سارت في المسار الذي ذكرناه .

● خرافة العرق

السفرودم

ينقسم اليهود في عصرنا الى قسمين رئيسيين هما السفرودم والاشكنازي . فاما السفرودم فهم متحدرون من اليهود الذين سكنوا منذ ازمة قديمة في اسبانيا (وهي تسمى بالعبرية سفاراد) ثم طردوا منها في اواخر القرن الخامس عشر فانقلوا الى البلاد المجاورة الواقعة على البحر المتوسط ، وكذلك الى البلقان والى غرب اوربا . وهم يتكلمون اللهجة العبرية الاسبانية (اللادينو) ولهم طقوس دينية خاصة وكان عددهم في سنة ١٩٦٠ يبلغ نصف مليون .

الاشكناز

اما الاشكناز فهم الغالبية العظمى من اليهود ، اذ يبلغ تعدادهم حوالي احد عشر مليوناً لقد ذكرت التوراة الاشكناز باعتبارهم قوماً يسكنون في منطقة قرب جبل ارارات في ارمينية . ورد هذا التعبير في سفر التكوين (١٠ : ٣) وفي سفر التواريخ (١ : ٦) باعتباره احد اولاد جومر ، ابن يافث واخو طفرمة وابن اخماحوج الذي يدعي الخزرج انه جددهم .

وذكر الاشكناز في سفر ارميا (٧ : ٥١) حيث دعاهم النبي ارميا الى تدمير بابل . وقد فسر سعديا الجاعون ، وهو من اكبر علماء اليهود في العراق في القرن العاشر الميلادي ، هذا النص بأنه نبوة عما سيحدث في عصره اي في القرن العاشر ، وان المقصود ببابل هو الخلافة الاسلامية بقمماد ، والمقصود بالاشكناز هم الخزرج او خلفاءهم . ويرى بولياك ، وهو استاذ تاريخ اليهودية في المصنور الوسيطة في الجامعة العبرية ، ان بعض علماء يهود الخزرج سمح تفسير سعديا فصار يطلق على اليهود الذين هاجروا الى بولنده اسم (الاشكناز) .

دم اليهود غير خالص : الادلة الانثربولوجية

لخص رافائيل باتاي في المقال الذي كتبه في دائرة المعارف البريطانية (طبعة ١٩٧٣) المناقشة الحادة القديمة عن مدى نقاوة الدم اليهودي بالفقرة التالية : « ان الادلة المستمدة من الانثربولوجيا الفيزيائية تظهر بانهم لا يوجد جنس يهودي كما هو سائد عند الناس ، فمقاييس اجزاء الجسم المسجلة لليهود تظهر بانهم يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا في مختلف المظاهر البدنية بما في ذلك القامة ، والوزن ، ولون البشرة ، وشكل الجمجمة ، ومقاييس اعضاء الوجه ،

واصناف الدم . والواقع ان دراسة اصناف السلم تظهر ان اليهود لا يختلفون عن الشعوب التي يقيمون بينها .

وجاء في إحدى الدراسات الناضجة التي نشرتها منظمة اليونيسكو عن مسألة المرق في العلم الحديث . وقد كتب هذه الدراسة الأستاذ جيسوان كوماس:

« بالرغم من الرأي السائد ، فان الشعب اليهودي خليط من اجناس متنوعة . والواقع ان هجرات اليهود المستمرة وعلاقاتهم الطوعية او القسرية مع انواع متعددة جدا من الامم والشعوب كانت من عوامل هذا التنوع وان ما يدعي شعب اسرائيل يمكن ان يظهر امثلة على صفات يتصف بها كل شعب ويكفي للتدليل على ذلك ان نقارن اليهودي من دوتروم وما يتميز به من ضخامة باين دينه من اهل سلانيك وما يتصف به من عيون مائلة ووجه عريض وجسم هزيل . وهكذا فان معلوماتنا تظهر ان اليهود عموما يمثلون درجة كبيرة من التباين والاختلاف تفوق ما يوجد بين الشعوب الاخرى . »

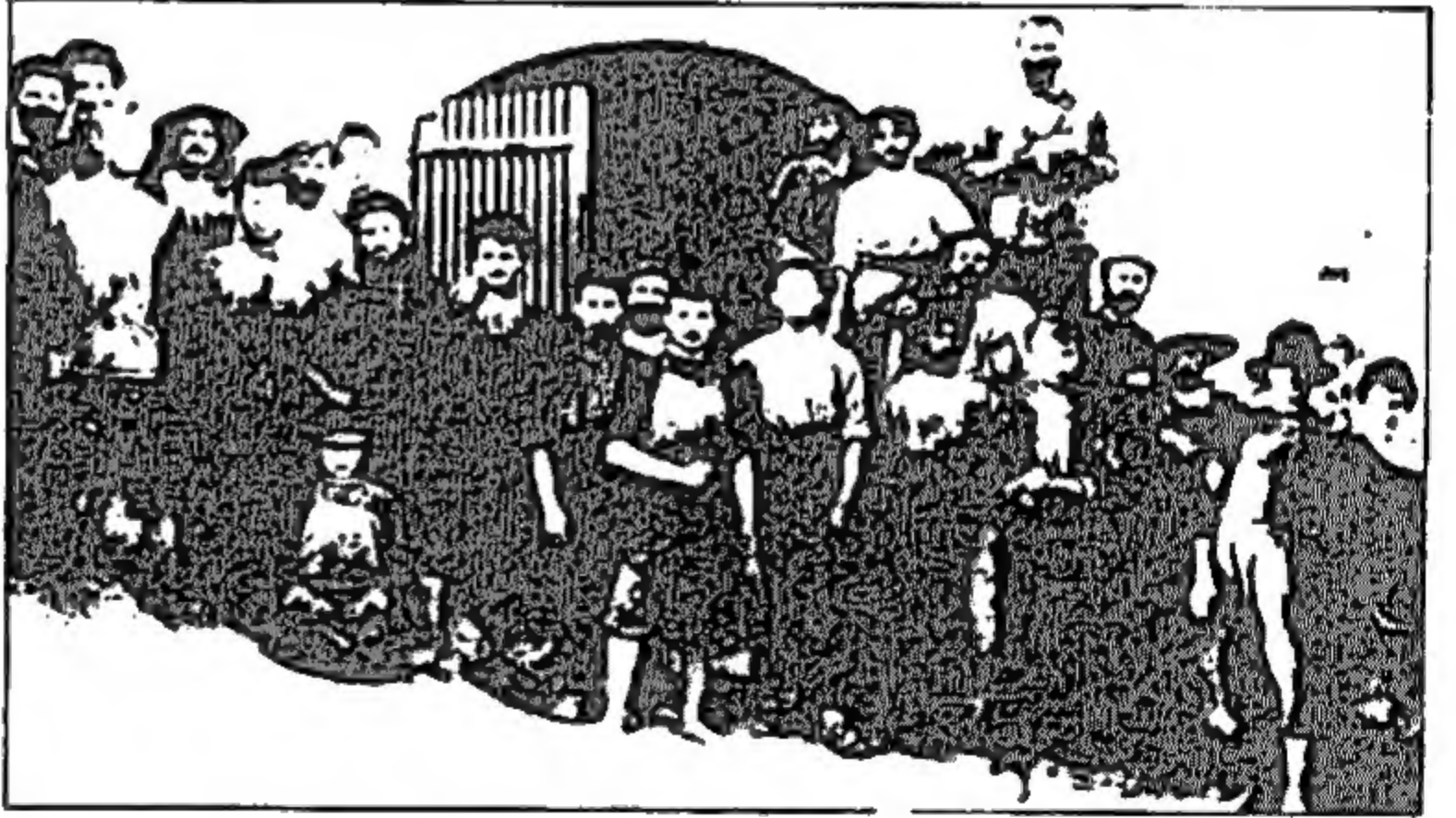
طول القامة

وذكر وليم ريلس في كتابه الكلاسيكي « عروق اوربا » الذي طبع سنة ١٩٠٠ .

« اليهود الاوربيون قامتهم اقصر من المعتاد ، وهم في الغالب Stunted مطلقا وقد اورد على ذلك احصائيات كثيرة . غير انه ذكر ان قصر القامة قد يكون مرجعه للتأثر بعوامل محيطية . »

وفي سنة ١٩١١ نشر موريس فيشبرج كتابه « اليهود: دراسة في العرق والمحيط » وهو اول مسح انثروبولوجي من نوعه باللغة الانكليزية وقد كشف في هذا الكتاب حقيقة غريبة وهي ان اطفال المهاجرين من اوربا الشرقية الى الولايات المتحدة قد يصبح معدل طولهم ١٦٧.٩ سم اي ان الطول يزيد حوالي انج ونصف في مدى جيل من الزمن . وهذه الظاهرة تنطبق على المهاجرين من الاجناس الاخرى . وهي ترجع الى تحسن التغذية والى عوامل محيطية اخرى .

ثم جمع فيشبرج احصائيات تقارن بين معدل طول اليهود وطول الشعوب الاخرى في بولندا ، والنمسا ، ورومانيا ، وهنغاريا . . . الخ : وكانت النتيجة عجيبة ايضا : فقد تبين منها ان طول قامة اليهود يتطابق مع طول قامة غيرهم ممن يمشون معهم فيكونون طوال القامة ، في البلاد التي اهلها طوال القامة والعكس بالعكس . ثم ان اطوال قامة الناس سواء كانوا يهودا او غير يهود تكون متباينة في افراد نفس الامة بل وفي نفس المدينة .



يهود من شعوب اخرى

ثم ان عددا من مختلف الشعوب اعتنقوا اليهودية؛ نذكر من ذلك فلاشا الحبشي، وكان فتح الصين، ويوسف ذي نواس اليماني. وظل التمسود يحدث حتى في العصر الروماني وبعد سقوط الدولة اليهودية. فقد اعتنق اليهودية في تلك الفترة افراد من حدياب واليونان وانطاكية. ويقول المؤرخ اليهودي رابناخ ان اليهودية في العصور الهلنستية والرومانية اتسمت بصفة لم تخص بهما في اي عصر اخر وهو انها اخلت تنتشر لمدة قرنين او ثلاثة بين الناس، وخاصة في مصر وقبرص وليبيا. ولا بد ان هذا رافقه اختلاط دم الاسرائيليين بدماء الشعوب الاخرى.

الجيتو وحصر الزواج

ان ظهور المسيحية وتطبيق نظام الجيتو اديا الى حصر اليهود، غير ان الجيتو لم يطبق بدقة الا في القرن السادس عشر. والواقع ان التزاوج بين اليهود وغيرهم ظل ساريا وكان سببا لاستياء رجال الدين النصاري ولاصدار المجالس الدينية مراسيم متعددة، كالمراسيم التي اصدرها كل من مجلس طليطلة سنة ٥٨٩ ومجلس روما سنة ٧٤٣ ومجلس لايران سنة ١١٢٣ و ١١٣٩ وكذلك المرسوم الذي اصدره الملك لادسلان الثاني الهنطاري في سنة ١٠٩٢. والواقع ان الجيتو حصر الزيجات مع غير اليهود ولكنه لم يمنعها، حتى انه كان في المانيا بين سنة ٩٢١ و ١٩٢٥ اثنان واربعون زوجة مختلطة من بين كل مائة زوجة يهودية.

تنصر يهود اسبانيا

اما يهود اسبانيا (السفارديم) فمن المعلوم ان كثيرا منهم تنصر؛ فبعد مذابح سنتي ١٣٩١ و ١٤١١ تنصر اكثر من مائة الف؛ ولكن كثيرا منهم ظل يعتنق اليهودية سرا، فاحتفظوا بمناصبهم العليا وتزوجوا مع غيرهم فلما صدرت قوانين طرد اليهود من اسبانيا (سنة ١٤٩٢) ومن البرتغال (سنة ١٤٩٧) زادت الشكوك في المنتصرين منهم، واحترقت محاكم التفتيش عددا منهم، واضطر اخرون الى الهجرة الى الاقاليم الاخرى من البحر المتوسط، والى هولندا، وانكلترا، وفرنسا حيث اعلنوا يهوديتهم في هذه البلاد.

تصنيف الدم

اما اصناف دمائهم فهي متباينة ايضا، وقد اجمل ذلك شاييو في فصل كتبه في احدي الدراسات التي نشرها اليونيسكو بعنوان «الشعب اليهودي» تاريخ بيولوجي حيث قال: «ان الدم الواسع في التنوع بين السكان اليهود في خصائصهم الفيزيولوجية، وتنوع تكررات الـ Genes لمجموعات الدم فيهم يجعل اي تصنيف جنسي موجد لهم يبدو غير مضبوط».

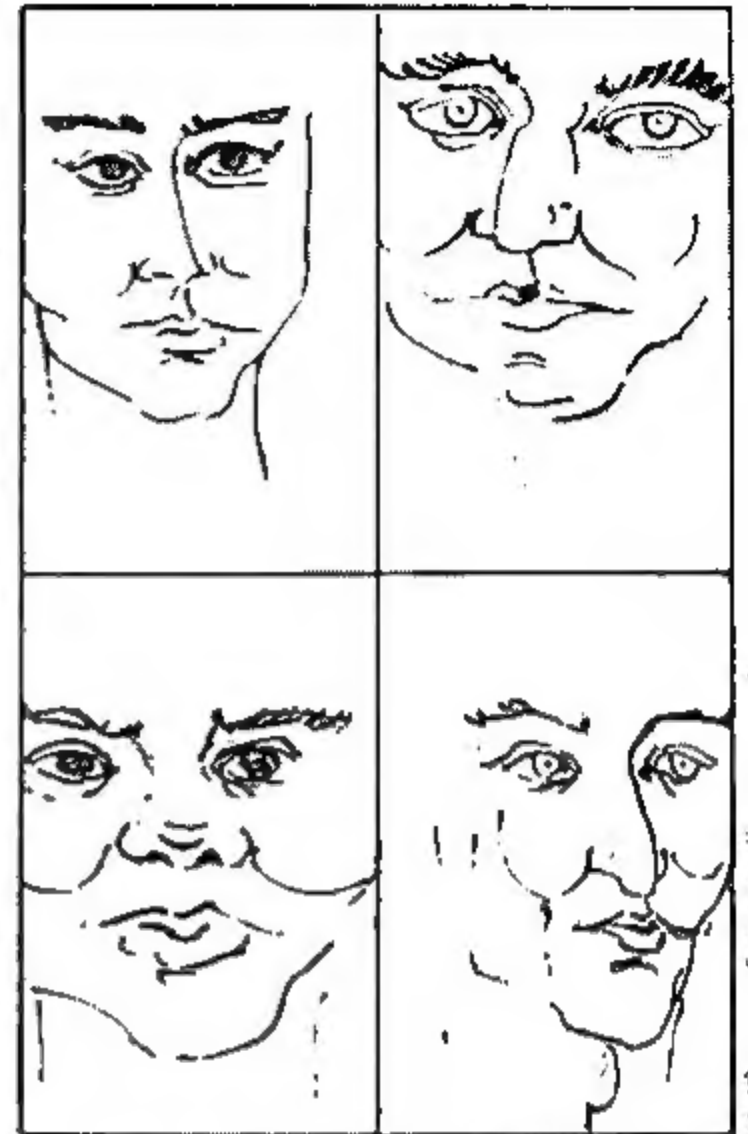
ان القضية الاساسية كما يقول فيشبرج هي: هل ان اليهود عرق نقي الدم تكيف الى حد ما بتأثيرات محيطية؟ ام انهم فرقة دينية تتكون من عناصر عرقية متنوعة جاءت من تنوع اصول المتهودين ومن الاختلاط بالزواج ابان هجراتهم الى مختلف ارجاء العالم. وقد اجاب فيشبرج عن ذلك بوضوح حيث قال:

اختلاط اليهود قديم

فلنبدأ بالأدلة الدينية واخبارها اذ يبدو ان قبيلة اسرائيل كانت منذ بداية ظهورها مكونة من عناصر عرقية متنوعة. فقد كانت في اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين آنذاك شعوب متعددة لكل منها سمات خاصة: فالصوريون شقر البشرة، نحاف البدن، طوال القامة وذوي رؤوس مستطيلة؛ والحثيون سمر البشرة وهم اقرب شيئا بالمفول، والكوشيون وهم من عرق زنجي، هذا فضلا عن شعوب اخرى. وقد تزوج اليهود مع كل هذه الشعوب كما يتضح ذلك من نصوص التوراة.

اصول متباينة

لقد نصح انبياء اليهود شعبهم بعدم الزواج من نساء من دين اخر، غير ان اليهود، وخاصة ملوكهم، كانوا اول المخالفين لتعاليم انبيائهم فقد تزوج ابراهيم الخليل هاجر، وهي امرأة مصرية؛ وتزوج يوسف من ابنة راحب مصري، وتزوج موسى امرأة من مدين؛ وكان شمشون اليهودي المشهور بقوة فلسطينيا. اما الملك داود فكانت امه ماوية، وزوجته جيشورية. اما سليمان فكانت امه حثية، وكان يفضل النساء الاجنبيات فقد تزوج ابنة فرعون، ونساء مايبات، وعموريات، وادوميات، وزيدونيات، وحثيات ويتجلى من التوراة ايضا ان كثيرا من عامة اليهود قلدوا حكمهم في التزوج من الاجنبيات ولا يخفى ان التوراة تبيح الزواج من الاسرى وهكذا لم يشد اليهود عن الشعوب الاخرى في عدم قصر الزواج على نساء من جنسهم.



من ٢٨٢٦ يهودي يسكنون نيويورك سبعة منهم قط انهم سقوة ٧.٥٧، مستقيمة ٧.٢٠، غليظ ٧.٦٩، مستوية مربعة.

وذلك تبعا لرغاء تلك المنطقة؛ وهذا لا يعني علم تأثير الوراثة في الطول، فاننا نؤكد في الحقيقة على العوامل الوراثة ولا نعطي العوامل المحيطية أهمية خاصة.

مقاييس الجسمجة

فلنعد الان الى مقاييس الجسمجة التي كان الانثروبولوجيون يهتمون بها؛ وهنا ايضا نجد ان مقاييس جسامم اليهود لا تختلف عن مقاييس غير اليهود الذين يعيشون معهم في نفس المنطقة؛ اي ان مقاييس جساممهم متنوعة، فجسامم اليهود السفارديين مستطيلة، وجسامم الاشكنازيين مستديرة.

والشائع ان اليهود ذوي شعور سوداء وعيون سوداء، غير ان كوماس قام بدراسة تبين منها ان ٤٠٪ من اليهود البولنديين شعورهم فاتح، وان ٥٤٪ من اطفال اليهود في النمسا ذوي عيون زرقاء. اما فيرشوف فقد تبين له من دراسة قام بها ان ٣٢٪ من اطفال اليهود لونهم اشقر.

التزاوج

وقد امتد هذا الاختلاط في التزاوج إلى يهود فلسطين أنفسهم، فقد روى لنا مثلا أن يهودا بن حزقيال عارض زواج ابنة من امرأة لا تنحدر من نسل ابراهيم، فقال له صديقه أولا: كيف تستطيع التحقق بأننا أنفسنا لنسنا متحدرين من الوثنيين الذين اقتضوا باكرات صهيون عند حصار اورشليم. ومن المعلوم أن غشيان نساء الصدور كان يعتبر في التاريخ القديم حقا طبيعيا للجيوش الفاتحة. ويريوي المؤرخ اليهودي جرايمز أن يهود المانيا تحدروا من نسل وحدة عسكرية المانية كانت تقاتل مع الجيش الروماني في فلسطين فأخذ أفرادها فتيات يهوديات كان من نسلهن أقدم يهود المانيا.

ولم يقتصر التزاوج بين اليهود وغيرهم على المانيا الغربية، بل كان سائدا في أوروبا الشرقية أيضا؛ فبقول فيشرج:

«لقد كان الاختلاط الجنسي الناجم عن الحروب كثر الحدوث في البلاد السلافية حيث كان رجالها يعلمون أن اليهود يحاولون قتل أسرارهم، فكانوا يصلون على الأكنار من أسر اليهود للحصول على الفدية، وكانوا ينكحون النساء الأسيرات».

هل لليهودي سحنة خاصة

يدعى البعض أنهم يمكنهم تمييز اليهودي من أول نظرة، فهل هذا صحيح؟ لقد قال أرنست رينان في سنة ١٨٨٣: «لا يوجد لليهود شكل واحد، بل توجد لهم عدة أشكال؛ فلليهود أشكال متعددة، كما أن عددا من تصورهم يهودا، هم ليسوا كذلك».

الأنف

وقد ساد بين الناس أن أبرز ما يميز اليهود هو شكل أنوفهم المحدبة التي تشبه منقار النسر؛ غير أن من الغريب أن فيشرج فحص ٢٨٣٦ يهوديا من مدينة نيويورك، فوجد أن سبعمهم فقط كان له مثل هذا الأنف، وأن ٥٧٪ منهم كانت أنوفهم مستقيمة، و ٢٠٪ ذوي أنوف فطس، و ٦٥٪ كانت أنوفهم مستوية عريضة. وقد وجد عدد من الأثنروبولوجيين مثل هذه النتائج في بولندا وأوكرانيا.

ويلاحظ أن الأنوف المعقوفة كثيرة عند قبائل العفقايس وعند سكان آسيا الصغرى، وأن لليهود أمريكا أنوف تشبه الأنوف التي يزعم الناس أنها من خصائص اليهود. أما النبدو والعرب، وهم ممثلوا السامية النقية ليست لهم أنوف معقوفة.

وما ذكرناه عن الأنف ينطبق على بقية أجزاء أوجهه التي يزعم بعض الناس أنها تميز اليهود، في حين أنهم لا يحتكرونها بل توجد عند أمم أخرى أيضا.

صفات مكتسبة من المحيط

إن الصفات المكتسبة من الأوضاع الاجتماعية ومن العوامل المحيطة الأخرى يصعب جدا فصلها عن العوامل الوراثية؛ وهذه الصفات المكتسبة تأثر كبير على السلوك والكلام والمبادئ؛ وإن من أهم وسائل تمييز اليهودي هي ملاحظة هذه الصفات المكتسبة، وملاحظة البسطة وطرق قص شعره؛ غير أن هذه الألبسة إذا لبسها غير اليهودي فإنه يبدو وكأنه يهودي، وهذا لا يقتصر على اليهود وحدهم، بل ينطبق على معظم الشعوب الأخرى، وهو يتجلى بوضوح من مراقبة الخصائص العامة التي يتميز بها سكان الولايات المتحدة علما بأن أصولهم العرقية متنوعة جدا. وجدير بنا أن نتذكر أن اليهود في العصور الحديثة عاشوا في معظم البلاد معزولين في معلات خاصة (الجيتو) فخصموا إلى محيط متشابه وتمرضوا إلى تأثيرات متشابهة.

عزلة اليهود في الجيتو

إن اليهود منذ زمن التورات حتى العصور التي طبق فيها الجيتو سادت عندهم العزلة، وانحصر زواجهم في داخل جماعتهم المعزولة. ولا ريب في أن هذا التزاوج الداخلي قد يؤدي إلى الاحتفاظ ببعض الصفات الجيدة، كما هو الحال في تزاوج الخيول، غير أنه كثيرا ما يسبب خطر جلب عناصر مضرّة مجمدة أو افساح المجال لزيادة تأثير هذه العناصر. ولعل هذه العزلة هي سبب ما عرفه الناس عن كثرة البلها في اليهود.

ومن تأثيرات العزلة أيضا التغيرات التي تحدث على العناصر الموروثة: فمن المعروف أن بعض الخصائص في التوارث البيولوجية تنقرض في الشعوب المعزولة أما لعدم وجود من يحملها أطلاقا، أو لقلّة الذين يحملونها وعدم نجاحهم في نقلها إلى الأجيال التالية، وهذا قد يؤدي إلى تبدل كثير من الصفات الوراثية.

ثم إن اليهود لم يشبهتقوا كثيرا بالزراعة، ولم يكثروا سكنى الريف، بل قصروا نشاطهم على المدن فأصبحوا مكتفين فيها، وقاسوا من الاخطار التي بولدها حصر أنفسهم في الجيتو؛ وهذا أدى على حد قول

شامبرو إلى أن «الابوة الكاسحة التي اجتاحت البلاد في العصور الوسطى كان لابد أن تؤثر في اختيار اليهود أكثر من غيرهم، فقد ألقت الضعفاء، واكسبت الباقي منهم مناعة تفوق ما لغيرهم». ويعتقد شامبرو أن هذا هو سبب قلة النسل عند اليهود.

الرفا

وقد وافقت المعيشة في الجيتو ضغوط معادية تراوحت بين الاحتقار البارد إلى أعمال عنف تطبق تبعها لبرامج منظمة. ولا بد أن الحياة لمدة قرون في مثل هذه الظروف قد أدت إلى بقاء أشدهم حضور بديهة وأكثرهم مرونة وقابلية على البقاء. وهذه صفات يميز بها اليهود الذين عاشوا في الجيتو. ولا يزال الجدل قائما حول ما إذا كانت هذه الصفات السيكولوجية تقوم على أسس وراثية تعمل بموجبها عملية الاختيار، أم أنها منقولة بالتوارث الاجتماعية خلال التكيف منذ الطفولة. فالمشهور مثلا أن اليهود معتدلون في شرب الخمر، وهذا يمكن تفسيره بأنه من آثار الجيتو؛ فإن الذي يعيش في ظروفه لا بد له أن يضبط نفسه من تصرفاته إذا أراد ألا يناله الأذى غير أن هذه العادة تزول عند زوال ظروف الجيتو، فهي مسألة بيولوجية وليست وراثية اجتماعية.

يقول ديلي «إن اليهودي من أصل عرقي مختلط، ولكنه من جهة أخرى الوريث الشرعي لليهودية؛ فإن اليهودية قد أثرت في كل جزء من تفاصيل حياته فلماذا لا تؤثر على جسمه وعلى جمال نسائه وعلى اختياراته في الزواج».

غير أن ديلي لم يدرس أثر الجيتو، أما فيشرج فقد درس هذا الأثر ووصل إلى الرأي الطريف التالي، يتميز يهود أوروبا الشرقية بقوة البدن، أما بقية اليهود فالمرء عنهم أنهم نحاف الجسم قصار القامة. غير أن هذه الصفات أخذت اليوم بالتبدل، وصار كثير من يهود أوروبا الغربية والولايات المتحدة يفخرون بأنهم لا يشبهون اليهود. وعلى هذا فائنا نأمل تبدلات كبيرة فيما يدعى «الطقة اليهودية»، وخاصة عند الناشئة الإسرائيلية.



١٩٥٠ هـ
١٩٥٦ م



الصفحة
160